

المبحث التاسع عشر

نفع الناس بكف الأذى عنهم

نأتي إلى خاتمة المطاف في الطرائق العملية لتفعيل المسلم لنفع الآخرين ، وهي كف الأذى عنهم .

❖ وكف الإنسان أذاه عن الآخرين تحصل به سلامتهم، ولهذا قال النبي ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ^(١) .

«سلم المسلمون من لسانه » ، فلا يسبهم ولا يلعنهم ولا يشتمهم ، ولا يغتابهم ، ولا ينم فيهم ، كل آفات اللسان المتعلقة بالخلق قد كفها فسلم الناس منه ، وسلم المسلمون من يده أيضاً : لا يعتدي عليهم بضرب ولا سرقة ولا إفساد مال ولا غير ذلك ، هذا هو المسلم ^(٢) .

وجاء في رواية أخرى : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم » ^(٣) .

فالأصل أن الإسلام والإيمان يقتضيان من مُدْعِيهما إشاعة السلام والأمن والأمان ، أما من يُرَوِّع الناس في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم ، بأدنى وسائل الترويع فليس بمؤمن كامل الإيمان ، قال النبي ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروِّع مسلماً » ^(٤) .

وتوضح بعض الروايات المناسبة التي قال فيها النبي ﷺ هذا الكلام ، فرواية ^(٥) ، تذكر أنهم كانوا في سفر معه ﷺ فنام رجل منهم فانطلق بعضهم

(١) البخاري برقم (١٠) في الإيمان ، ومسلم برقم (٦٤) في الإيمان .

(٢) شرح رياض الصالحين ، لابن عثيمين (٢/١٦٥٩) .

(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (٦٧١٠) .

(٤) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٨٠٧) .

(٥) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٨٠٥) .



إلى حبل كان معه فأخذه ففزع الرجل ، وأخرى ^(١) قريبة منها غير أنها تذكر أنهم أخذوا منه سهماً من كنانته فانتبه الرجل ففزع

ولا شك أن هذا كله كان على سبيل المزاح ، ومع ذلك جاء النهي لما في هذا المزاح الثقيل من ترويع المسلم ، بل في رواية قال : « لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاعباً ولا جاداً » ^(٢) .

فكيف بمن يؤذي المسلمين ويروّعهم ليس مازحاً ، بل قاصداً تخويفهم ؟ ، كمن يخوفهم بالسلاح أو غيره من الحيل ، يتصل شخص بشخص ينقل إليه خبراً كاذباً : ابنك سقط من أعلى أو لامرأة : زوجك تزوج غيرك ... وغير ذلك من التفاهات ، ولكن هؤلاء يستحقون لعنة الملائكة حتى يكفوا .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو القاسم عليه السلام : « من أشار إلى أخيه بحديد ، فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي وإن كان أخاه لأبيه وأمه » ^(٣) ، والملائكة لا تعلن إلا ما لعنه الله - عز وجل - .

والعجيب أن حديث « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، من الأحاديث المشهورة وكل الناس يحفظونه ، ولكن ربما لا يفهم الكثير معناه ، وإلا لو فهموه لرأينا أثر هذا الفهم في واقع الناس .

إن من الناس من لا يُحسن أن يفعل الخير ، ولا يحضُّ عليه ، ولا يترك محبي الخير وشأنهم ليفعلوا ... وبالطبع مثل هذا الشخص ييأس الناس من أن يتأتى منه نفع ، علاوة على ما يلحقهم من أذاه ، وهذا هو الذي قال فيه النبي ﷺ : « إن شرَّ الناس من ودَّعه الناس اتقاءً فحشه » ^(٤) .

(١) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٨٠٦) .

(٢) صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٨٠٨) .

(٣) مسلم برقم (٢٦١٦) ك البر والصلة .

(٤) البخاري برقم (٦٠٥٤) ك الأدب .

لذلك كان النبي ﷺ إذا سأل سائل عن أفضل الأعمال أرشده ، فذكر أعلاها وأفضلها ، ثم يتدرج معه في ذكر ما دونها ، وفي الأخير ربما قال له : كُفْ أَذَاكَ عَنِ النَّاسِ ، أو أمسك عن الشر فإنه صدقة .

واقرا هذين الموقفين وتأملهما جيداً :

عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، أي الأعمال أفضل ؟ ، قال : « الإيمان بالله والجهاد في سبيله » ، قلت : أي الرقاب أفضل ؟ ، قال : « أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً » ، قلت : فإن لم أفعل ؟ ، قال : « تُعِينُ صَانِعاً أو تصنع لأخرق » ^(١) ، قلت : يا رسول الله ، أرايت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ ، قال : « تكفُ شرَّك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك » ^(٢) .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة » قال : أرايت إن لم يجد ؟ ، قال : « يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق » ، قال : أرايت إن لم يستطع ؟ ، قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قال : أرايت إن لم يستطع ؟ ، قال : « يأمر بالمعروف أو الخير » ، قال : أرايت إن لم يفعل ؟ ، قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة » ^(٣) .

ومن خلال تأملك وأنت تقرأ ، لابد أنك لاحظت كثرة أبواب الخير المفتوحة والتي ينبغي أن يسارع الناس إليها ، لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [المائدة : ٤٨] ، ورسوله ﷺ يقول : « إذا فتح لأحدكم باب من الخير فليلججه ، فإنه لا يدري متى يُغلق » .

والعاجز هو من وقف دون تلك الأبواب جميعاً ، فلم يلج شيئاً منها ولا حتى

(١) الأخرق : هو الذي لا يحسن صنع شيء لعجز أو هرم أو نحوه .

(٢) البخاري برقم (٢٥١٨) في العتق ، ومسلم برقم (١٣٦) في الإيمان .

(٣) البخاري برقم (٦٠٢٢) في الادب ، ومسلم برقم (٥٥) في الزكاة .



أن يكف شره عن الناس ، وهذا ربما لو مات لأراح واستراح .

ومن طريف ما يُروى : أنه قال رجل للحكيم : ما خير ما يُؤتَى المرء ؟ .

قال : غريزة عقل .

قال : فإن لم يكن له ؟ ، قال : فتعلّم علمٍ .

قال : فإن حُرّمهُ ؟ ، قال : صدق اللسان .

قال : فإن حُرّمهُ ؟ ، قال : سكوتٌ طويل .

قال : فإن حُرّمهُ ؟ ، قال : ميتةٌ عاجلة (١) .

قال الشيخ / محمد الغزالي - رحمه الله - معلقاً على الحديث الأخير :

« لا بد إن كان مسلماً أن يقدم شيئاً ، يستحيل أن يكون المسلم عقيماً ، لا أثر له ولا ثمرة ، وإنني لأشعر باستخزاء وحياء حين يقال : جمهرة العالم الثالث من المسلمين ، أو أن المسلمين ذيل القافلة البشرية !! ، أين الأمر العام الصادر لهم ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴿ [الحج : ٧٧ - ٧٨] ، أين الصدقة المكتوبة على كل فرد منهم يؤديها فقيراً كان أو غنياً ؟ .

الغريب أن الإسلام نبّه إلى صنف آخر من الناس لا يعمل ويكره العاملين ، ينظر بعين السخط إلى ما يؤديه الآخرون يلتبس عيباً فيه ليتحدث ويطعن في صاحبه ، فعن أبي مسعود الأنصاري لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا - أي نؤجر أنفسنا حمّالين لتتصدق بالأجرة ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقال - المنافقون - : مُرَاءٍ ، وجاء آخر فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صاع هذا ... ، لا الكثير يرضيهم ولا القليل يرضيهم ، إنهم هدامون طعانون ، فنزل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٩) ﴿ [التوبة : ٧٩] .

والواقع أن العاجزين عن العطاء مهرة في الغمز واللمز ، والأُم التي لا تعرق في ميادين الكدح لا ينقطع ضجيجها في نقد الآخر ^(١) .

واعلم أن الصحابة رضي الله عنهم عندما كان الرجل منهم يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن طرق الخير وأبوابه ، ويقول : « أرأيت إن لم أفعل » ، « أرأيت إن لم أستطع » ... لم يكن هذا النزول همهمهم أو لعجزهم أو بحثاً عن الأيسر ، وإنما هذا لفقهمهم ، فالرجل منهم يريد أن يفتح أمام نفسه - وأمام الأمة - أكثر من باب للخير ، وينهض فيعمل بها جميعاً ، ويضرب في كل منها بسهم ، متمنياً أن يُنادى عليه من جميع أبواب الجنة ، وذات يوم كان النبي صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه رضي الله عنهم ليتفاعلوا ويتسابقوا نحو الخيرات ، ذكر أن كل من تميز في باب من أبواب الخير يُنادى عليه يوم القيامة منه ليدخل الجنة ، قال صلى الله عليه وسلم :

« ... من كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة » فقال أبو بكر رضي الله عنه : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ ، قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » ^(٢) .

إننا الآن في كثير من المجتمعات الإسلامية نجد غفلة كثير من الناس عن كثرة طرق الخير ، وترتب على هذا أن ولج أكثر الغافلين في طرق الشر ، فظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم ، وأصبح أقصى ما يتمناه المسلم من المسلم - ليس فعل الخير - وإنما أن يكف عنه شره وأذاه !!! .

واقراً وتأملاً قوله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من يُرجى خيره ، ويُؤمن شره ، وشركم من لا يُرجى خيره ، ولا يؤمن شره » ^(٣) .

(١) كنوز من السنة (ص ١٤٨ ، ١٤٩) ، وانظر قصة أبي مسعود في البخاري برقم (٤٦٦٨) .

(٢) البخاري برقم (١٨٩٧) ك الصوم .

(٣) صحيح الجامع الصغير (٣٣٢٠) .

فهل يا أخي العاقل وأختي العاقلة - بعد كل هذا - ستبقى عاطلاً عن فعل الخير ، ولو أن تكف شرك وأذاك عن الناس ؟ .

إن كف الأذى والإمساك عن الشر برغم ما فيه من الخير إلا أنه نفع قليل لا يتناسب مع المكانة المرصودة للمسلمين ، في عمارة الكون ، وقيادة الناس ، وتغيير الوجه القبيح للحياة .

فهل يحقق العجز تلك المكانة :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

[آل عمران : ١١٠] .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴿ [الحج : ٧٧ - ٧٨] .

